تحولات المعنى المجازي – مقاربة في ضوء الأنثروبولوجيا الرّمزية

metaphorical meaning shifts
An approach in the light of symbolic anthropology

د. آزاد حسّان حيدر شيخو
أستاذ مساعد
جامعة الموصل– كلية التربية للعلوم الانسانية – قسم اللغة العربية

Dr. Azad Hassan Haider Sheikho
Professor
University of Mosul - College of Education for Human Sciences - Department of Arabic Language

azad632000@uomosul.edu.iq

الكلمات المفتاحية: الأنثروبولوجيا ، الرمزية ، المجاز ، تحولات المعنى
Keywords: Anthropology, symbolism, metaphor, transformations of meaning

الملخص

انصب اهتمام الأنثروبولوجيا الرّمزية على دراسة الأشكال الرّمزية المتمثلة بالأقوال المجازية، بوصفها رموزاً تفسيرية تفصيلية تضع خارطة للمقولات والتصنيفات الثقافية ، فلم تعد ثمة مقولات مجازية قارة في التمثل الواقعي أو العرفي أو في مخيلة المبدع الذي ينشئ عالمه الخاص به، فمسألة تشكيل المجاز تتجاوز علاقات اللغة في التركيب إلى علاقات الانسان بالعوالم التي تحيطه وبما يقتضيه السياق الحضاري والثقافي، فثمة تحولات في المعنى المجازي بين الحقيقة والمجاز وبين فضاء المجاز نفسه، فالخطاب في إطار المجاز يحقق التفوق الزّمني ويكتسح كلّ الفترات الزّمنية، وهو بالضرورة يتمتع بنصيب وافر من أنتاج صور مجازية متبارية في فضاء النّص الأدبي .

Abstract

The interest of symbolic anthropology has focused on studying symbolic forms represented by metaphorical sayings, as detailed explanatory symbols that map out cultural categories and classifications. There are no longer permanent metaphorical categories in realistic or conventional representation or in the imagination of the creator who creates his own world. The issue of metaphor formation goes beyond language relations in The structure refers to man's relationships with the worlds that surround him and what is required by the civilizational and cultural context. There are shifts in the metaphorical meaning between truth and metaphor and the space of metaphor itself. Discourse within the framework of metaphor achieves temporal supremacy and sweeps through all periods of time, and it necessarily enjoys a large share of producing competing metaphorical images in space. Literary text.

مدخل معرفي :

تعدّ اللغة مظهراً متميزاً للكائن الانساني عن غيره من الكائنات الحيّة، ويتجلى تميزه في طريقة التخاطب مع أقرانه من الجنس البشري بواسطة رموز صوتية وأشكال كلامية متفق عليها، فكانت خير وسيلة اتصال لنقل التراث الثقافي والحضاري، فاللغة ((نتاج اجتماعي لملكة اللسان ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبناها مجتمع ما ليساعد أفراده لممارسة هذه الملكة))[١]،

واللغة تملك من بنية دلالية تعدّ غنية وذات قوة تعبيرية، تُرّمز وتفك ترميز كل ما تعبر عنه، وهي بهذه الوظيفة تعالج كل ما تتطلبه التجربة البشرية مهما اختلفت طبيعتها، فاللغة جزء من وسائل الاتصال بمحيطها فضلا عن إدراكه، والتفاعل معه، والفعل فيه، والانفعال به[٢].

وكان على عاتق الأنثروبولوجيا دراسة الانسان بوصفه كائناً يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية وثقافية مترابطة ومتغيرة، بدائية كانت أم حديثة معاصرة[٣]، أن تعنى بدراسة اللغة في سياقها الاجتماعي والثقافي في المكان والزّمان المحددين، ولاسيما في تمظهرات اللغة التي تكشف عن النماذج الفكرية والإدراكات التي تنطوي عليها[٤]، فصورة الفكر عند كلّ قوم تتشكّل بواسطة اللغة التي تعدّ تصنيفاً مقولياً يُنشئ الأشياء ويوجد العلاقات بينها، وكلّ لغة أو لسان تُشكل العالم على طريقتها الخاصة، وهي بذلك تكون الأساس في وجود المجتمع البشري وفي وجود ذاتية الانسان، فاللغة تمتع بقدرة إبداعية وتأسيسية، وهي المُفسِّر لكلّ الأنساق الرّمزية الأخرى[٥] .

والوجهة الأنثروبولوجية في دراسة اللغة تنأى عن البحث في البناء الشّكلي للغة في المستويات الصّوتية والنّحوية؛ لتتجه نحو المستوى الدّلالي والاستعانة بمرجعيات ثقافية اجتماعية[٦]، فلم تعدّ اللغة مجرد توصيل صوتي للأفكار، بل نمط من النشاط وجزء من السلوك البشري، والنّطوق اللغوية لا تفهم في حدّ ذاتها إلا في (سياق الحال)، والسياق يضم

---

(١) علم اللغة العام، فرديناند دي سوسور، ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز : ٢٧ .

(٢) الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف ومارك جونسون، ترجمة: عبدالحميد جحفة: ٦.

(٣) مدخل إلى علم الإنسان(الأنثروبولوجيا)، د. عيسى الشّماس : ١٣.

(٤) المصدر نفسه : ١٠٢ .

(٥) في الأنثروبولوجيا اللسانيات – الذهن والخطاب والثقافة ـ ، عبد الرحمن محمد طعمة: ٢٠-٢١ .

(٦) الأنثروبولوجيا اللغوية، د. مها محمد فوزي : ٩٠-٩١ .

ما هو شخصي وثقافي وتأريخي بل يصل إلى معرفة الوضع الفزيقي الذي تم فيه الكلام بين متكلمين وسامعين(١).

ومن هذا المنطلق عدّت اللغة انعكاساً للثقافة، وإنّ تصورات الأفراد في تشكيل المفاهيم لديهم تتجلى في سلوكياتهم اللغوية المعبر عنها بالرّموز القولية، فكان لابد من دراسة الثقافة بصورة تتفق وطبيعتها الرّمزية؛ لأنّ الثقافة والرّمز وجهان لعملة واحد، والجهاز الرّمزي هو امتياز للكائن البشري الذي يميز الانسان عن عالم الأشياء الطبيعية، وبه يخرج من العالم المادي ليعيش في عالم الرّمز، فكلّ معرفة يتحلى بها الانسان هي نسيج تحاك منه الشبكة الرّمزية للتجارب الانسانية، وكلّ تقدم يحرزه الانسان في الفكر والحياة ناتج عن شبكة الرّموز التي تفتح لنا آفاقا من عالم الاستعارة، بوصف الاستعارة أداة ذهنية عرفانية – تأملية – لها القدرة على التحكم في الشبكة الرّمزية المعقدة (٢) .

إنّ إدراكنا للعالم هي مصفاة للحقيقة، فالإدراك يعني التصفية بإطلاق دلالة للأشياء وإعطائها معنى وشكلاً خاصاً، ولن يكون للعالم أي معنى بدون هذا التشكيل؛ لأنه محط تلاقٍ بين التفكير والعالم الذي يعطي معاني للأشياء(٣)، وهذا ما حدا بالفيلسوف اللغوي فتجنشتين أن يعدّ الفكر هو القضية ذات المعنى، فردّ اللغة إلى تركيبات صور معينة، وإنّ العلاقة بين اللغة والعالم هي كعلاقة الرّسم بالمرسوم أو بين الصّورة والأصل(٤)، فاللغة بوصفها رموزًا قولية تعبر عن العلاقات القائمة بين الانسان والواقع .

والرّمز يتطلب أساسين في تشكله: يتمثل الأول في مستوى الأشياء الحسّية التي تأخذ شكل الرّمز، يتضايف معه مستوى الحالات المعنوية المرموز إليها، ويتمثل الثاني بوجود علاقة بين ذينك المستويين؛ ليتشكل الرّمز بواسطة المشابهة التي لا يقصد منها التماثل في

---

(١) الأنثروبولوجيا اللغوية : ٩٤ . الوضع الفزيقي يقصد منه فيزيقيا علم الطبيعة ، وهو البحث في خصائص المادة العامة التي تتقيد بالظواهر الطبيعية . معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر : ٣/ ١٩٥٧. ويقصد منها هنا بيئة الكائن الحي – المتكلم والسامع– التي تتضمن الخواص الفيزيائية لمجموعة العوامل المحلية كالطقس – المناخ – وطبيعة الأرض فضلا عن الكائنات الحية الاخرى التي تشاركه موطنها البيئي . (بوابة علم البيئة ، https://www.wikiwand.com/) .

(٢) في الأنثروبولوجيا اللسانيات – الذهن والخطاب والثقافة ـ : ٥٣ .

(٣) سؤال المعنى– من الفسلفة إلى الأنثربولوجيا– ، د. علاء كاظم: www. mana.net

(٤) بحوث فلسفية، لود فيتج فتجنشتين، ترجمة د. عزمي إسلام :١٩–٢٠ .

الملامح الحسيّة، بل شكل من العلاقات الداخلية من النظام والانسجام والتناسب بين الرّمز والمرموز، تمنح طاقة إيحائية واسعة تنأى عن المباشرة التقريرية[١] .

لقد شكّل التمحور حول (المعنى) بؤرة الاعتناء بالرّموز في وظيفتها الاتصالية بين المعاني الحرفية (الحقيقية) والمعاني الرّمزية (المجازية) والتمييز بينهما، وإنّ فضاء المفارقة بين المعاني الرّمزية وغيرها يكمن في أمرين، أولاً: إنّ المعنى الحرفي لتلك الجملة ليس هو المقصود فهمه واستيعابه، وثانياً: فهم المعنى المقصود لكلمات معينة يكون بفك شفرة المعنى المباشر والبحث عن معنى عميق مستتر، وينطبق هذا الأمر على سائر الموضوعات والأمثال والشعائر غير القولية كذلك، فالشعائر بالنسبة لقوم ما تبدو أنها مجرد أفعال رتيبة متكررة تؤدي إلى غرض ما، ولكنها بالنسبة لآخرين لها دلالة مجازية على الإيمان والمعتقد الذي يدلّ على معنى عميق، فالرّمز إن كان قولياً أو غير قولي، فهما يحلان محل الشّيء المرموز إليه[٢] .

وسؤال (المعنى) هو سؤال الأنثروبولوجيا العميق الذي يفتح آفاقاً جديدة من المعرفة الأنثروبولوجية لفهم الانسان المعاصر، فكان على الأنثروبولوجيا مراعاة منطلقات المبدئية في دراسة المعنى عبر، أولاً: الرّصد الأنثروبولوجي للمعنى بوصفه هدفاً أساسياً تنشده كلّ أفعال البشر فضلا عن أفكارهم مهما كان حجم بساطتها أو تعقيده، والطرق التي تؤثر فيها المعاني على أفعال البشر ومقدراتهم، وكيف يبني البشر رؤيتهم للعالم من خلال تلك المعاني فضلا عن كيفية توظيف المعاني في توجيه رؤية البشر للعالم، وما تقدمه لنا من تأويل في البنى الوظيفية ونظام العلاقات المستندة إليها؛ مما يترتب على علماء دراسة الانسان قراءة المعاني المخفية التي يقصدها، والكشف دائماً عما هو تحت السّطح ، ثانياً: عبر عملية الوصول إلى معنىً ما من شأنه أن يسهم بفاعلية في إعادة بناء مفهوم الانسان؛ فادراك المعنى وفهمه يعدّ العنصر الأساس في تشكيل ماهية الانسان ووجوده، ولتحقيق هذه المنطلقات لابد معاينة أنظمة المعنى بوصفها فعاليات ذهنية متداخلة ومتعالقة في صميم الثقافة، وإنّ آلياتها عملها واجراءاتها تكمن في السياقات الثقافية لمجتمع ما[٣] .

(١) الرّمز في الشعر العربي قبل الإسلام، د. مؤيد محمد صالح اليوزبكي : ٢٧ .

(٢) الأنثروبولوجيا الرّمزية : ٢٥– ٢٦ .

(٣) سؤال المعنى– من الفسلفة إلى الأنثربولوجيا –، د. علاء كاظم : www. mana.net.

الأنثروبولوجيا والمعنى المجازي :

النّص بؤرة تتجلى فيه الممكنات؛ لأنّ النّصوص لا تنسج طوباوياً هندسياً خالياً من شقوق وثقوب وفراغات، فليس هناك نصٌ نقيٌ؛ لأنَّ الكلام لا يخلو من ترميم أو ترقيع أو نسخ؛ وتتبارى حينها الدّوال بالكشف عن المجاز والحقيقة فيهما، فقد تكون الحقيقة بتشكلاتها المختلفة ضمن معايير خاصة مجرد فرضية لا تكون لها قيمة إلا بفرض الفارض لها، وتنزل عن سموها لتصبح لعبة قوى وصراع إرادات وهيمنة فضلا عن رغبات وتصالب وأوهام تتعلق بإرادات سلطوية أو دينية او عرفية أو ثقافية أو هيمنة علمية ومعرفية؛ لتتوالد عناقيد الحقيقة في توالد مستمر، فما كان حقيقة قد يصير مجازًا، وما كان مجازًا قد يصير حقيقة، وتكون حركة الدلالات في استمرارية التحولات المتغايرة للاستحواذ على المعنى وظلاله(١) .

إنّ أهم خاصية للنّص هي خاصيته البنيوية التي تظهر النّص بوصفه مجموعة من علامات مشفرة ومبنّية، ولا يمكن القبض على معناه إلا من خلال دراسة العلاقات بين العناصر اللغوية والدلالية المكونة للنّص، وهذا لا يستحصل من خلال مطابقته لأية حقيقة، فليس من وظيفة النّص في مطابقة المعاني لحقيقة خارج- نصية، فلا بد من مراعاة المنطق الداخلي للعلاقات التي تربط أجزاء النّص بعضها ببعض، إذ تقتصر وظيفة النّص التنظيمية على تركيب عناصر المادة اللغوية أو بناء معناها أو تحديد صيغ قراءة النّص ومستويات التأويل، إنّ هذه الوجهة في الوظيفة تفيد أن يعامل النّص بوصفه علامة (رمزاً) يتحرك داخل فضاء ثقافي معين(٢)، فالنّص يتضمن بنية ترميزية تمنحه قابلية على تشكيل علاقات جديدة بين الوحدات الدّالة فيه، مما تجعل القراءة دوماً ممكنة ومستمرة التفاعل مع النّص الأدبي، وتجعل القارئ أمام عدد غير متناهي من اختيارات علائقية تبرر احتمالية المعنى بما يحويه النّص على عناصر تخييلية مساهمة في اتساع تداول النّص واستهلاكه، وإنّ التفاوت في الإبداعات الأدبية ترسم سحر التعبير القائم على توظيف بوسائل لغوية من الاستعارة أو الكناية أو المجاز -المرسل- أو الأسطورة(٣) .

---

(١) تحولات المجاز في الفكر العربي المعاصر- بحث في الفجوات والإملاءات - د. حيدر برزان سكران: ٦٦-٦٧ .

(٢) نظرية النّص- من بنية المعنى إلى سيمائية الدال - ، د. حسين خمري : ٦٨-٦٩ .

(٣) شعرية الترميز وآليات توليد المعنى في النقد العربي المعاصر، بريزة بهلول و عبد اللطيف حني ، مجلة إشكالات في الأدب واللغة، جامعة الشلذلي بن جديد ، الطارف، الجزائر، مجلد ٩، العدد ٥ ، ٢٠٢٠ : ٣٨٠، ٣٨١ .

وحقيقة الأمر أن الخصوصية الإنتاجية للمعاني المجازية مردّه إلى إطار العلاقات الذهنية بين الأشياء، وقد فطن له علماء البلاغة حينما تناولوا دائرة المجاز ضمن مدار الدلالات العقلية التي فتحت آفاقًا في المجال الدلالي للمجاز ووسعت فضاء المعاني فيه، كما أشار أبو يعقوب السّكاكي (ت٦٢٦هـ) إلى كون المجاز ينتقل فيه من الملزوم إلى لازمه : إما يكون اللزوم عقليًا محضًا، أو يكون اللزوم اعتقاديًا أو بعرف أو لغير عرف(١)، وهذا منوط بتنوع مقولات المجاز بمعانيها الرّمزية على وفق تطور الفكر البشري، فكل التعبيرات الرّمزية هي نتاج عملية إضافة المعنى إلى الحقائق التجريبية التي يختبرها الانسان، أي أنّ الرابطة الرّمزية بوصفها مقولات بين الموضوع أو الحادثة – المقام – في العالم الخارجي وبين صورته السمعية قد امتدت إلى العالم الداخلي – الفكري–؛ ليصبح تصوراً مجرداً في العقل(٢)، فالتعابير عن العالم الواقعي المحسوس تتحول بإطار فكري إلى تعبير معنوي، وهذا النّمط من التحولات في الدلالة أنتجتها المقدرة اللغوية العربية، ولا سيما في تحول ألفاظ الحقائق اللغوية إلى المجاز، وقد استوعبت كتب المعاجم البلاغية هذه التحولات من الدلالة الحسّية إلى الدلالة المجردة المجازية، وعلى سبيل المثال لا الحصر لفظة (أُفق) بمعنى جوال في الآفاق، وما في آفاق السماء طرّة سحاب، وتحولها إلى دلالة الفضل والعطاء كقول الكميت(٣) :

الفاتقونَ الرّاتقو نَ الآفقونَ على المَعاشِرِ .

فالدلالات المجازية لها القدرة على توسيع الامكانات اللامتناهية وتلغي الحدود المنطقية والفواصل الحسيّة، فترينا في الأشياء مالا عهد لنا به في التجربة الحسية، وتتجلى بواسطتها رمزية اللغة وشاعريتها وأسطوريتها الفطرية، ولقد لعب الخزين المعرفي للوحدة المعجمية العربية دورا أساسيا في ثراء المعنى المجازي ولاسيما في الاستبدلات التعبيرية؛ إذ فتحت المجال الدلالي لتتعدى مدلولَها الأصلي، فمفردة (الرّيح) ومشتقاتُها التي لها ارتباط بطبيعة الصّحراء، شكلت وسيلة تعبيرية استعارية مسؤولة عن إبداع صور عديدة تتعدى المدلول الأصلي، فالرّيح في التعبير غالباً ما استعملت للصّفة السّلبية مغايرة بذلك ما اشتق منها على صيغة الجمع (الرّياح)، وأنّ لفظة (ريح) المفردة كانت أكثرَ استجماعًا للمعاني السّلبية من جميعها (الرياح ، والأرواح).

---

(١) مفتاح العلوم، علق عليه نعيم زرزور : ٣٣٠ .

(٢) الأنثروبولوجيا الرّمزية : ١٤٥–١٤٦ .

(٣) أساس البلاغة ، الإمام جار الله الزمخشري، قراءة وضبط وشرح د. محمد نبيل طريفي : ١٩ .

وفي الشّعر نلاحظ التغاير في الاستعمال المجازي، مستصحباً تحوّلاً دلالياً لكلمتي (الرّيح/ الرّياح)، ففي نُذُر الموت والخطر الدّاهم يقول ابو العتاهية[١] :

لعمركَ ما تهبُّ الريــحُ إلا نعاكَ مُصرِّحًا ، ذاك الهُبوبُ

وفي معنى الخير والعطاء قول لبيد بن أبي ربيعة[٢] :

ويكلّـلُونَ إذا الرّياحُ تناوحتْ خُلُجًـا تمدُّ شـوارِعًا أيتامُها

وحقيقة الأمر انّ مردَ اعتبار لفظة(الرياح) بوصفها دالةً على الخير والعطاء، يعود إلى مرجعية ثقافية أنثروبولوجية مترسخة في ذهن العربي، أسست لمعنىً إيجابي، فالعرب تعتقد أنّ السّحابة لا تتلقح إلا من رياح مختلفة، لينزلَ الغيثُ والمطر[٣]، فاللغة برمزيتها أثْرت المعاني وفتحت المجال الدلالي؛ لتتجاوز محددات دلالة الوضع اللغوي في مدلولَها الأصلي، فأوجدت عندهم مقولة (الرّيح الذئب) بوصفه كائنًا اسطوريًا خياليًا تخيلته العرب، ومثّلته باللغة التي عندما عجزت أدوات الانسان من إيجاده[٤] .

والكناية لم تكن بمنأى عن الملازمات الذّهنية في الانتقال إلى المعاني المتوخاة، فالقيمة الفنية للتعبير الكنائي تكمن في قدرته على إعطاء إشارات رامزة بجانب الدلالة الإشارية التي تبتعد عن المباشرة في التركيب اللغوي[٥]، ولا سيما حينما تعبر عن صور الأحوال بحسب المقام والاعتبارات الاجتماعية في مجتمع ما، فقد تطلق مقولة الكناية حينا لإظهار المعنى بألين اللفظ إمّا تنزُهاً، وإمّا تفضّلا في حين آخر، كما سمّوا المعزول عن ولايته مصروفاّ، والمنهزم عن عدوه منحازاّ، حتى سمّى بعضهم البخيل مقتصداّ ومصلحاً[٦].

---

(١) ديوان أبي العتاهية : ٣٥ .

(٢).ديوان لبيد ابن ربيعة العامري : ١٧٨ .

(٣) القراءة وتوليد الدلالة ، د. جميل لحمداني : ١٢٩–١٣٠.

(٤) الكنايـة فـي ضـوء التفكيـر الرّمـزي (رسـالة ماجسـتير)، د. نائلـة قاسـم لمفـون ، إشـراف د.لطفي عبد البديع ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، ١٩٨٤ : ١٠٩ .

(٥) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د. رجاء عيد : ٤٢٢.

(٦) الكناية، د. محمد جابر فياض : ١٨ .

وقد تكون عدولا عمّا لا يليق الى ما يليق، وعمّا يليق إلى ما هو أليق، فتتناقل الحمولة الدلالية في فضاء الملازمات الذهنية وتتجلى تحولاتها في المعنى، لتراعي المقامات في ظرفها الزماني والمكاني، ومنه ما أُطلق على جُذيمة صاحب الملكة الزّباء، ففيما سبق كان يطلق عليه بجذيمة الأبرص؛ لبرص ألمّ به، لمّا صار ملكاً قالوا جذيمة الأبرش تيمنا بالبياض، فلما عَظُم شأنه قالوا عنه: جَذيمة الوضّاح[١] .

ففهم المقولات من الوجهة الأنثروبولوجية لا يقتصر على الفضاء اللغوي، بل لابد سياق مقترن بمعرفة الوضع الفزيقي كما ذكرنا سابقاً، وهو سياق يضم كل ما هو شخصي وثقافي وتأريخي تم فيه الكلام بين متعلمين ومستمعين، وقد أكد العالم الأمريكي وورف في كتابه (اللغة بين الفكر والواقع) أنّ ((بين النموذج اللفظي وبين منظومة الاخلاق والمفاهيم والتخيلات العادية واللاواعية والأسطورية والشّعرية تفاعل معقد))[٢]، وقد برهن على أثر اللغة والفكر بين المتخاطبين من واقع عمله حينما كان مسؤولًا في إحدى شركات التأمين للبحث عن أسباب الحرائق، والحادثة مفادها: وقوع حريق هائل في إحدى شركات النّفط الامريكية، فعزو السّبب في ذلك إلى العمال الهنود الحمر؛ لأنهم تعاملوا مع البراميل الفارغة بلا مبالات؛ مما أدّى إلى انفجارها فطال الحريق البراميل المملؤة التي كانوا حريصين بالحفاظ عليها، فرأى وورف بعد التحقيقات أنّ العمال الهنود غير مذنبين؛ لأنّ عبارة (براميل خالية) الدالة عندهم على حقيقة (خلو الشّيء تماماً) أثرت في طريقة تفكيرهم؛ فتصرفوا على وفق ذلك غير آبيهن بمجازية العبارة؛ فهم يجهلون بأنّ البراميل الفارغة هي مملوءة بالأبخرة الغازية التي خلفتها براميل النفط المملوءة[٣] .

إنّ ما ذهب إليه وورف في تفسير لمقولة (براميل خالية) يتطابق مع مقتضيات صياغة الكناية، وللعبارة مدلولان بحسب الوجهة الاجتماعية فضلا عن المعطى الحضاري، فالعبارة عند العمال الهنود الحمر على وفق معطياتهم الحياتية البسيطة البعيدة عن مستويات التحضر المدني تعني فارغة من كل شيء تماماً، فهي (آمنة)، في حين أنّ مدلول الكناية

---

(١) الكناية : ٢١ ؛ وينظر: البرصان، أبو عثمان الجاحظ ، تحقيق عبد السّلام محمد هارون: ١١٦ .

(٢) محاضرات في اللسانيات الاجتماعية، لطفي بو قربة : ٢٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٧ .

نفسها بحسب المعطيات الحضارية لمنتسبي الشركة من الأمريكيين، أنّ دلالة (براميل خالية) لا تعني أنّها خالية من كلّ شيء فهي (خطرة)، فلابد من مراعاة كلّ صنف من أصناف المخاطَبين أحوالهم الفكرية والنفسية والاجتماعية فضلا عن مراعاة الأساليب الكلامية الملائمة التي يُخاطَبون بها، سواء كان فرداً أم كانوا جماعة، العامة منهم أم الخاصة، والجاهلون منهم أم العلماء، بُداة جفاة كانوا أم متحضرين، فلكل صنف منهم أساليب من القول تلائمه[١].

(١) دور المخاطب في إنتاج النّص وأثره في لغة الخطاب وبلاغته – قراءة في التراث البلاغي – ، د . علي عبد الكريم مبروك ، مجلة حولية كلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات، المجلد السابع ، العدد الثاني والثلاثين ، الاسكندرية ، ٢٠١٦ :٢١٧ .

الأشكال الرّمزية وتحولات المعنى المجازي :

انصب اعتناء الأنثروبولوجيا الرّمزية على دراسة الأشكال الرّمزية المتمثلة بالأقوال المجازية من الاستعارة والمجاز المرسل والكناية، بوصفها الرّموز التفسيرية التفصيلية التي تقابل الرّموز التلخيصية التي تتضمن التكثيف والاختصار المشبعة بالانفعالات كونها مرتبطة بقيم دينية واجتماعية مثل رموز العَلم والصّليب(١)، وما شابهها من الرّموز التي تحمل قيماً ثقافية أو سياسية أو غيرها، أمّا الرّموز التفصيلية فتعدّ رموزاً تفسيرية تقدم الأطر التي بفضلها يمكن تمييز المشاعر والأفكار المركبة المتداخلة؛ لأنها تتمتع بالقدرة على تنظيم الخبرة وتنسيقيها بفضل خاصيتها التحليلية ولاسيما في الرّموز الاستعارية التي تتسم بميزة تصورية هائلة فضلا عن كونها مصدر كل التوجهات المعرفية والوجدانية، فمن خلال هذه الرّموز يمكن تمييز التجربة والخبرة الانسانية ووضعها في مقولات ثقافية(٢)، فسيرورات الفكر البشري تعد استعارية في جزء كبير منها، والاستعارات في اللغة غير ممكنة إلا أن بوجود قدرة استعارية في النسق التصوري لكل منا(٣)، والنسق التصوري في مجمله ذات طبيعة ثقافية يسيّر تفكيرنا وسلوكنا بطريقة نفهم العالم من حولنا .

إنّ ميزة الرّموز التفصيلية التّصورية وقوتها في التمثل مردّها إلى فضاء المجاز الذي يشتغل على الإبداع المعنوي من خلال عملية الاستبدال اللفظي بطريقة فاعلة في إحداث الانتقالات بين الدّال والمدلول، ذلك أن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة هشة، فليس ثمة تلازم بين هذين الكيانين، فهناك تدخلًا مستمرًا في اللغة ممثلًا بالمجاز(٤)، فمسألة المجاز تتجاوز علاقات اللغة لتمثل علاقات الانسان بالعالم وبما حوله، ولم يكن المجاز غرضًا لغويًا للزينة، بل للمجاز خطة محكمة مقصدها توليد المعاني بصفة لا نهائية من الدلالات المتجددة، فالخطاب في إطار المجاز يحقق التفوق الزّمني ويكتسح كلّ الفترات الزّمنية، وهو بالضرورة يتمتع بنصيب وافر من المجاز وعلاقاته(٥) .

لقد تعددت المداخل الأنثربولوجية باتجاهات مختلفة في التحليل اللغوي للمعنى في ضوء دراسة الثقافة، فالأنثروبولوجيا البنائية سلطت الضوء على نسق التمايزات التي يتحدد فيها معنى وحدة معينة، بكلمة ما أو تصور ما من خلال علاقة الوحدة أو الكلمة بوحدة أخرى أو كلمة أخرى طبقاً لعلاقة التناقض والتضاد الموجودة داخل النسق على العموم، أمّا

---

(١) الأنثروبولوجيا الرّمزية : ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٨ .

(٣) الاستعارات التي نحيا بها : ٢٣ .

(٤) الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، د. محمد الولي : ١٠٨ .

(٥) كيمياء المجاز بين الخطاب القرآني والانساني، بو عافية محمد عبد الرزاق : ٥٣ .

الأنثربولوجيا المعرفية المعاصرة فتُعنى بالتعرف على مصنفات التوصيف في لغة الأفراد الذين يعيشون في مجتمع الدراسة تزامنياً وبالطريقة التي يرى بها الأفراد عالمهم، وهو توجّه معاصر يختلف عن الاتجاه القديم للأنثروبولوجيا الذي سلط ضوء البحث على مصنفات التوصيف في اللغات الأصلية بزمنها المعاش(١).

ولقد اقتصرت منهجية الأنثروبولوجيا المعرفية على تحقيق الموضوعية في التعامل مع المعنى على حساب الجوانب المعنوية والوجدانية؛ وغالباً ما توصف أبحاثها بأنها صورية شكلية، فتضع الثقافة في قوالب من المقولات الجامدة تخلو من دلالات المعاني الرّمزية ولا تراعى فيها الجوانب القصدية من سلوك الأفراد، وهي منهجية اضطلعت بها الأنثروبولوجيا الرّمزية في العمل على تأسيس نسيج من المعاني ذات الطبقات المتعددة التي تحملها الكلمات والتصورات والأشكال الرّمزية فضلا عن ما تعكسه من أفعال(٢)، إنّ هذا التوجه في البحث يتفق مع رؤية البلاغيين عند تناولهم للمقولات على مستوى الكلام عند البلاغيين بين الحقيقة والمجاز، ولا سيما عند تعريفهم للمجاز بوصفها ((الكلمة أو التركيب المستعمل في غير ما وضعت له اصطلاح التخاطب))(٣)، فعُنوا بأن يتشكل أسلوب الكلام في ضوء معرفة المخاطَب وإدراك أحواله المختلفة: نفسياً وثقافياً واجتماعياً ، وبما يقتضيه الإدراك المعرفي في سياق ثقافي مرتهن بالزمان والمكان، وينطبق هذا على المقولات ذات البعد المعرفي بالتطور الثقافي والحضاري .

فمقولة: كلمات جارحة، لم تعد عبارات مجازية قارة بسبب تداولها في سياق ثقافي حضاري معاصر يختلف عن سياقة في حقبة زمنية ماضية، فتغاير معطيات دلالة الكلام في تحولات المعنى مرتهن في البعد الأنثروبولوجي الأناسي، الذي تسوده نظم وانساق اجتماعية وفي ظل ثقافة معينة بدائية كانت أم حديثة معاصرة(٤)، فمعنى (لا برء) مما يحدثه جرح اللسان بمقولة الشاعر (١):

---

(١) الأنثربولوجيا المعرفية واتجاهاتها النظرية(اللغة، المكان، الزمن)، سوزان سالم داؤد، مجلة الآداب، جامع بغداد، ملحق العدد ١١٨، ٢٠١٦ : ١٤٠-١٤١ .

(٢) الانثروبولوجيا الرّمزية : ١٤٣-١٤٤.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ، وضع حواشيه ابراهيم شمس الدين : ٢٠٤ .

(٤) ذكر د. أسامة صيام اختصاصي علم النفس أن الكلمات الجارحة سميت جارحة لأنها تسبب جروحاً حقيقية في الدّماغ وتميت خلايا عدة أو تتلف عملها مسببة نوعاً من العطل بالتفكير فيعاني الشخص المجروح آلاماً وشعوراً سلبياً محبطاً ، وأشار إلى الباحث الالماني مايكل هوجسمان الاختصاص في علم النفس الطفل قال: أنه من المرجح أن تكون أجزاء عدة

وقد يُرجّى لجُرحِ السيفِ بُرءٌ ولا بُرْءٌ لِما جَرحَ اللّسانُ

هو غير معناه الذي نعرفه في الزّمن المعاصر، ربما كان مقصد الشاعر القديم أنّ الزّمن وتبدل الأحوال لا يكفي لنسيان آثار الكلام المؤلم الموجع للنفس، في حين أنّ معنى (ولا برء) في الزّمن الراهن في عدم الشفاء هو إعاقة أو ضرر مستدام في الدماغ وهو الأشد والأنكى في النّفس شعوراً وجسداً .

ومقولة: الليالي البيضاء، التي أطلقها الكاتب الروسي دوستويفسكي على روايته (الليالي البيضاء)، غادرت إطارها المجازي لدى المتلقي الرّهن؛ ليقصد منها الأحداث والوقائع التي جرت في الليالي البيضاء الحقيقية، ولاسيما أنّ أحداث الرواية وقعت في مدينة بطرسبورغ الروسية[٢]، التي تدخل في نطاق الظاهرة الفيزوطبيعية، فتكون الليالي فيها مضيئة حقاً .

وتتوسع مديات تحولات المعنى المجازي لتصل إلى بعض المقولات ذات الصّبغة الشرعية التي تبدو بسياق زمني معين أنها في معرض الذّم، ليأتي سياق مغاير في إطار ثقافة معرفية ومعطى علمي راهن يحوّل المعنى رأساً على عقب؛ ليوسع من فضاء المقاصد التي من أجلها سيق الكلام، ومنه ما ذكر عن وقت الامساك في الصوم بقوله تعالى: ﴿وكُلوا واشربُوا حتى يتبينُ الخَيطُ الأبيضُ من الخَيطِ الأسْودِ مِن الفَجر﴾[٣] ، فقال الرّسول صلى الله عليه وسلم حينما سأله الصّحابي: يا رسول الله ما الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ، أهما الخيطانِ؟ قال الرّسول صلى الله عليه وسلم: إنّك لعريضُ القفَا إنْ أبصرت الخيطين، ثم قال لا بل هو سوادُ اللّيل وبياضُ النّهار[٤]، وقد حمل بعضهم معناه على الذّم، كأنهم فهموا أنه

من المخ تتعامل مع الألم العاطفي، مما تترك أثراً أبعد مدىً . ينظر: الكلمات الجارحة حينما تترك ندوباً نفسية لا تنسى، alghad.com .

(١) العقد الفريد ، ابن عبد ربّه الاندلسي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤٠٤هـ : ٣/ ١٦ .

(٢) تعد مدينة بطرسبورغ الروسية نموذجاً جلياً لظاهرة الليالي البيضاء التي تبقى فيهن السماء مضيئة في الليل بضوء يشبه ضوء الشفق وهي ظاهرة معهودة في مناطق العالم الشمالية لأنها الأقرب إلى خطوط العرض المدارية، سببها موجات إشعاعية تنتقل في طبقات الغلاف الجوي تسبب تضاعف كمية الضوء في الغلاف الجوي فيتضاعف مقدار الضوء ليلاً إلى (١٠) أضعاف . ينظر: ما سر ظهور الليالي البيضاء في بعض المناطق المدارية ، Arabic.rt.com .

(٣) سورة البقرة، الآية : ١٨٧ .

(٤) صحيح البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد اسماعيل البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، رقم الحديث ٤٢٤٠ : ١٦٤٠ .

نسبه إلى الجهل وعدم الفقه بمقولة (عريض القفا) وهو غير صواب؛ لأنّه قد يكون حمل المعنى على حقيقته اللسانية، وهي الأصل مالم يتبين دليل التجوز، فيكون المقصود من المعنى: وسادك إنْ كان يغطي الخيطين اللذين أراد الله تعالى وصفهما، فهو إذن عريض واسع[١]، وهو إقرار لحقيقة كونه عريض القفا، ويأتي سياق آخر في إطار ثقافة معرفية بمعطيات حضارية راهنة يحوّل المعنى إلى فضاء آخر مغاير تمامًا، لتنقلب مقولة (عريض القفا) إلى كناية عن صفة إدراكية إيجابية تمثلت في قوة التمييز بين اللون الأبيض واللون الأسود في الرؤية الليلية، وقد أفادت المعطيات العلمية التشريحية أنّ قشرة الدّماغ الموجودة في مؤخرة الرأس قد يكون فيها من الاتساع الذي يسمح بزيادة الرؤية الليلية[٢] .

ولا تنفك تحولات المعنى المجازي عن التغاير في المعطى الدلالي، ولا سيما في إطار تطور الإدراك المعرفي المقترن بسياق ثقافي وحضاري مرتهن بزمان ومكان محددين، والذي يمكن توظيفه في تناول بعض الحقائق القرآنية التي يطرأ عليها تحولات في المعاني المجازية، ومنه قوله تعالى: ((ربِّ إنّي وهنَ العظمُ منّي واشتعل الرأس شيبًا))[٣]، فالمعنى المعهود لاستعارة (واشتعل) لقوة الانتشار وشمول جميع الرأس بالشّيب الدال على بلوغ العمر مرحلة لا يؤهله للإنجاب والذرية، مع إمكانية تحول المعنى المجازي في سياق حضاري مغاير ومعطيات معرفية راهنة إلى حقيقة طبيعية في الإنسان، مفادها أنّ تحول الشعر اللون الأسود إلى اللون الأبيض بعملية بيولوجية بواسطة مركب أطلق عليه(بيروكسيد الهدروجين) الموجود في خلايا الشعر، وهو مركب له القدرة على إحداث الحرق والإشعال، ففي مراحل بلوغ الانسان لسن كبيرة تضعف مادة الميلامين المسؤولة عن صبغة اللون الأسود للشعر، وحينها تقوى مادة (بيروكسيد الهدروجين) الحارقة وتأخذ بالازدياد؛ مما يؤدي إلى ظهور الشيب[٤]، وهذا التحول من المعنى المجازي إلى الحقيقي لا يغير من الغاية المرجوة من المعاني المتوخاة في عرض الآية الكريمة، وهي الإعلام عن معجزة الوليد الجديد بعدما بلغ سيدنا زكريا سنًا لا يمكنه الإنجاب وإخلاف الذرية من بعده، فيكون اشتعال شعر الرأس على وفق المعنى المجازي أو الحقيقي دليلًا بينًا على تلك المرحلة المتقدمة من العمر، ولا سيما أن مقدمة الآية

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني : ٤/ ١٠٧ .

(٢) الكناية العلمية في السّنة النّبوية المطهّرة، د.أحمد عامر، مجلة الجامعة العراقية، العدد ١/٣٩، ٢٠١٧: ٣٣.

(٣) سورة مريم ، الآية: ٤ .

(٤) اكتشاف أسرار الشيب ، موقع عبد الدائم الكحيل للإعجاز العلمي في القرآن والسنة . kaheel٧ com.

الكريمة ذاتها توضح ذلك، بقوله تعالى: (ربِّ إنّي وهنَ العَظمُ مِنِّي)، إذ عززت الفهم في بلوغ الكبر والعجز، وعلى شاكلة هذه التحولات في المعاني المجازية يمكن معاينتها وتطبيقها على نماذج من الشواهد القولية، ولاسيما في ضوء المتغيرات ذات البعد الحضاري في بالاكتشافات العلمية والفيزيائية الحديثة .

وإذا كان هناك إمكانية في تحوّل المعنى بين مقولات المجاز والحقيقة بظرفها الحضاري والثقافي، فإنّ ثمة تحولات للمعنى على مستوى الفضاء المجازي نفسه، فالمجاز يمتاز ببنية ترميزية تمنحه قابلية على تشكيل علاقات جديدة، وإنّ الرّمز يشير إلى كلّ أنواع المجاز، إذ تكون للكلمة فضلا عن معناها المعجمي معنى آخر، وإنّ وحدة العلاقة بين الدال– المدلول لا تنفي بوجود علاقة بين مدلول ومدلول آخر، فالمجاز بأشكاله المتنوعة تمكننا من إنشاء القواعد الرّمزية؛ لأنها صياغة لمختلف العلاقات الممكنة بين المدلول وآخر، أي بين رامز ومرموز إليه(١)، فالاستعارة والمجاز المرسل والكناية جوهر التفكير الرّمزي وقاعدته الإنتاجية من خلال وفرة الاختيارات العلائقية التي تبرر احتمالية المعنى، والتفكير الرّمزي نمط من التفكير يشكل وسيطاً لشيء آخر كما لو كان هو الشيء نفسه، فالرّمز يشير إلى المعنى المعجمي للكلمة إضافة إلى معنى آخر مستقىً من روافد انسانية وحياتية وكونية شتى .

والجوانب الرّمزية للقضايا أو العبارات اللغوية للأنماط الفكرية لا تنفصل عن الواقع الاجتماعي أو المضمون الفعلي ولاسيما في تمثلات الهوية التي تعدّ أفضل مجال للتحولات المجازية؛ لأنها تعكس شخصية الفرد الانساني، فالهوية إحساس الفرد بنفسه وحفاظه على تكامله وقيمته فضلا عن سلوكياته وأفكاره(٢)، وقد تجلى نسق الهوية في الثقافة العربية بأشكال من رموز قولية عبرت عن تمثلاتها الاجتماعية فضلا عن التغاير في توظيف الرّمز بحسب الرؤى والفكر والثقافة المتبناة، وفي مقدمتها الرّموز المتعلقة بصورة المرأة، فحضور المرأة كان ضارباً في تكوين شخصية العربي القديم، بوصفه منشئًا للقول ومبدعه، فأعزّها وأحبها ونظم القصيد بذكرها وجزع على هجرها أو ظعنها، ووقف على أطلالها يندب شجوه ويبكي حظه ويتذكر ماضيه السّعيد، وخاطبها فخوراً بشجاعته وكرمه، وأشهدها على حسن بلائه ومحامده(٣)، والظعينة بوصفها امرأة تعد مظهرًا بارزًا من مظاهر الارتحال الذي يكاد يكون ناموسًا وقدرًا مفروضًا على العربي في ظل طبيعة صحراوية، فالظعينة هي رمز الحياة التي يصبو إليها، وهي في الوقت نفسه رمز يحتمل مبدأ اللذة في مواجهة مبدأ الواقع الذي يعانيه

(١) الصّورة الشعرية في الخطاب النقدي والبلاغي : ١٩٢ .
(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، أ.د أحمد مختار عمر : ٣/ ٢٣٧٢ .
(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي : ٩٥ .

الشاعر[١]، ولجمال جسد المرأة حظ وفير في مخيلة الشّعراء بحكم نزعتهم الحسّية، فكانوا يقفون عنده وقفة الفنان المتأمل في رسم لوحة تخرج في أحسن حلّة تزينها المعاني والرّموز، فتناولوا وصف الجسد في كلّ مناحيه منه ما يتعلق بالجسد الممتلئ الشّعر والعينين والحاجبين والفمّ والأنف فضلا عن الصّدر والنّحر والعنق والنّهد نزولًا إلى الرّدف، ولم ينسوا القدّ واعتدال القامة[٢]، وما رسم عمرو بن كلثوم بريشة مجازاته عنها إلا لوحة منتقاة من بانوراما وصف المرأة[٣]:

وثديًا مثلَ حُقِ العاجِ رَخْصًا حَصانًا من اَكُفِّ اللامِسينَا
ومأكَمَةً يَضيقُ البابُ عنها وَكَشحًا قد جُنِنتُ بهِ جُنونًا

وهو وصف جسدي بامتياز بإطار مركب من التشبيه والمجاز، فهي تريك شكل ثديٍ مثل حقٍ من العاج الأبيض اللّين، لكنه عفيف محروز من أكف اللامسين، ولها مأكمة أي وركٌ يضيق البابُ من سعته[٤]، فضلا عن وصف الكشح المتمثل في الجزء ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف، وهو من لدن السّرة إلى المتن[٥]، كناية عن الحسن، فأصاب المتكلم جنوناً من فرط جماله، وقد سرت الصورة الجسدية للمرأة مخيلة الشاعر العربي لعصور تلت، واتخذوا وسيلة الغزل والنسيب طريقً لها، ولم ينسلخ الشاعر العربي عن هذا الدأب عند جلّ الشعراء المعاصرين[٦]:

من عاداتي
أنْ أحركَ نهرَ الأنوثةِ حيثُ أشاء
وأوقفَ مجراهُ، حيثُ أشاء
فلا تعجَبني من غَرابة طقسي
ففي ذُروة الصّيف
يولدُ عندي الشّتاء

(١) الرّمز في الشعر العربي قبل الاسلام : ١٣٣ .
(٢) تمثلات المرأة في الشعر العربي القديم، لبنى علي مفتاحي :١٥-١٦
(٣) شرح المعلقات السّبع ، حسين ابو عبد الله الزّوزني (ت٤٨٦ هـ) : ٢١٩ .
(٤) المصدر نفسه : ٢١٩ .
(٥) لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف ، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون ، مادة (كشح) : ٣٨٨٠ .
(٦) خمسون عاما في مديح النساء ، منشورات نزار قباني : ١٠ .

فالوجود الفعلي لشكل المرأة في مخيلة المبدع العربي والفضاءات المشحونة بالإيحاءات يكتمل بصياغة الجسد المؤنث وتمثيله ثقافيًا من خلال الرجل، فهو من يؤثث جغرافية المرأة وانتمائها ، فالمرأة روحًا وجسدًا وفكرة تتفق في ذهن الرجل، ويكون الرجل أمامها بين حالتين أحدهما في حالة سمو والأخرى في حالة دنو وهبوط بحسب قدرته على التخلص من هيمنة الجسد(١) .

وفي حالة السّمو تمثلت المرأة بوصفها رمزًا، فأطلقت على مسميات النّجوم التي عهدوا رؤيتها بوصفها القمر والزُهرة والشّمس، وزعموا أنّ هذه النجوم عائلة مشكلة من ثلاثة أشخاص: الأب هو القمر، الأبن هو الزّهرة، والأم هي الشّمس، وأطلقوا كذلك اسم (الداجنة والمدجنة) على القينة تغني في الدّجى، فحين ظهور الغيم في صفحة السّماء وغلبهم الجدب أخذوا بالغناء إلى آلهة الغيث والخصب(٢) .

وهذا البعد الانثروبولوجي الرّمزي الكوني حاضر في الفكر البشري المعبر عن الهوية على الرّغم من تنوع المجتمعات في قديمها وحاضرها، فنجده في أبسط المجتمعات البشرية وأقلها حضارة وثقافة، وقد أشارت الدراسات الأنثروبولوجية أنّ شعب (بورورو) وهم قبائل بدائية بوسط البرازيل يمارسون شعائر بدائية، ويطلقون على أنفسهم بعبارة (نحن ببغاوات) ويضعون لباس الرأس المصنوع من ريش ذيل الببغاء الأحمر، وهي عبارة استعارية تكشف عن تصور أفراد شعب البورورو لأنفسهم بكونهم ببغاوات حمراء، وهي عبارة مجازية تفسر اعتقادهم في أنّ الرّوح البشرية بعد الموت وانفصالها عن الجسم تتجسد في شكل طائر الببغاء الأحمر، اعتقاداً منهم أنه الحيوان المفضل والوسيط الهام في عملية التجسيد للروح البشرية، فيستطيعون من خلاله أن يمارسوا نشاطهم في الأكل والجماع مرة ثانية، فضلا عن هذه الشعائر تعدّ من الأشكال الثقافية ذات الدلالة الرّمزية كما أنها تمثل نشاطاً ترتبط بقيم الرّجولة والمبادرة والإقدام(٣) .

وفي الذاكرة العربية القديمة نجد هذا المنحى الأنثروبولوجي في صياغة مقولات معبرة عن هوية متبنيها، على الرّغم من المفارقات العقدية بين الأنساق الثقافية؛ لتشكل تلك المقولات في المعطى الثقافي العربي دلالات رمزية عبرت عن قيم الفروسية في خوض غمار الحرب، ولا سيما في بعض الرّجز الذي كان تقوله النساء للحث والتحريض على القتال والإقدام في سوح القتال، وهي عادة عربية قديمة، فقد ورد في عدد من المصادر السّيرة والأدب أن النساء يحرضنّ الرجال على القتال بتغنّيهن (نحن بنات طارق)، وذهبت المصادر اللغوية

(١) تمثلات المرأة في الشعر العربي القديم : ٧ .
(٢) الأسطورة في الشعر العربي الحديث، د. أنس داؤد : ٥٩– ٦٥.
(٣) الأنثروبولوجية الرمزية : ١٥٦– ١٥٧ .

والأدبية أنّما المراد بالطارق النّجم، أنهنّ شبهن أباهنّ على سبيل المجاز في علوه وشهرة مكانته[١]، وقد استعملت هذه المقولة الرّمزية في مناسبات منها: في يوم ذي قار في حرب العرب على الفرس، فتغنت نساء قبيلة بكر بن وائل بقولهن[٢] :

نحنُ بَناتُ طارِقُ نَمشي على النَّمارقْ
الدرُّ في المَخَانِقُ والمِسكُ في المَفارِقْ
إن تُقْبِلوا نُعـانِقُ أو تُدبِـــروا نُفارِقْ
فِراقَ غيرَ وامِقْ

وقد تناولت المرجعية الثقافية العربية مقولة (بنات طارق) بما يدلل على كونها رمزاً مجازيًا، كما أشارت بعض المصادر أن بعض الصحابة ذكروا قول هند بنت عتبة: (نحن بنات طارق)، فما الطارق؟ فقال الضحاك بن عثمان الحزامي: النّجم، قال تعالى: ((والسّماء والطّارق، وما أدراك ما الطارق، النجم الثّاقب))[٣]، فقال: إنّما نحن بنات النّجم[٤]، وقد ذكر الباحث توفيق فهد أنّ عبارة (بنات طارق) مرتبطة بطقوس دينية بجعل بنات نجمة الصباح منتميات إلى مؤسسة كهانة النساء أو إلى وظيفة التي تؤديها الكاهنات على رأس الجيش، وفي مقدمتها طرائق الاقتراع بضرب الحصى في ساحة المعركة[٥]، ومع ذلك كلّه لم تبق مقولة (بنات طارق) حبيسة الذهن الأسطوري في مخيلة العربي أو محصورًا في التجليات المجازية، فثمة تحوّل إلى معنى آخر استقاه المتلقي العربي من موروثه الاجتماعي في سمو النّسب وشرفه، وأنّ امرأة تدعى زينب إحدى بنات قبيلة بني مالك بن كنانة، تزوجها رجل من تميم، وهي من بنات طارق اللاتي يقلن : (نحن بنات طارق نمشي على النّمارق)[٦]، بما يدلل على حقيقة العبارة في تمثلها الواقعي .

وكان للانفتاح الحضاري ذي البعد الانثروبولوجي الرّمزي دور في تحييد الذاكرة العربية عند بعض الشعراء، فاستعملوا رموزاً أسطورية بوصفها ضرورة للشعر المعاصر لها دلالاتها ومثيراتها من الرّصيد العقدي الأوربي، فشكّل الخيال الأسطوري المستورد من حضارات غريبة المرجعيات الفكرية والرؤى بمنظار الإشارات والرّموز الاسطورية والثقافية

(١) المعاني الكبير، أبو عبد الله محمد ابن قتيبة الدينوري : ١/ ٥٣٠ .
(٢) التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن حمدون بهاء الدين البغدادي : ٥ /١٨٩ .
(٣) سورة النجم ، الآية : ١-٣ .
(٤) الأغاني، أبو فرج الأصبهاني علي بن الحسين : ١٢ /٣٣٨ -٣٣٩ .
(٥) الكهانة العربية قبل الإسلام، توفيق فهد، ترجمة حسن عودة و رندة بعث : ٨٨ .
(٦) الأغاني : ١٢ / ٣٣٧ .

داخل النسيج الشعري على نحو تصبح مبعث ثراء وتكثيف القصيدة[١]، فكثر الاشتقاق من خاصية (تأليه) مظاهر الوجود ونعت الأشياء بها، فضلا عن توظيف ظواهر أسطورية اجتماعية من قبيل : بنات الماء ، وربّة الأحلام ، وعرائس الآمال، وربّة الشّعر[٢]، مغادرين بذلك العمق الحضاري لخزين الذهن العربي القديم بإشاراته الرّمزية وصلاته بمظاهر الطبيعة من الشّمس والقمر والنجوم فضلا عن الأمطار والنخيل والآبار، إذ كان أحدهم يخاطب الخيل كما يخاطب الرجل أخاه، ومنهم من يخاطب الشّجر حتى بلغ منه أن يجعل النّخلة رقيباً وحارساً على زوجته مدة غيابه[٣]، وهذا التشكيل في المعاني عندهم لم يصدر عن إحياء أسطوري، كما هو معلوم من المقاييس النقدية المعاصرة، بل اعتمدوا في الإبانة عن المعنى بالصّور الجزئية غير ممتدة الجذور في بواطن الأمة وتراثها الحضاري غير مرتبط بعالم الخيال الطليق الذي يخلق شكلًا كليًا متشعب الأبعاد للعمل الفني على نحو ما تفعله الأسطورة[٤] .

ويظهر التحول في تشكيل المعاني بإطار المجاز عندما استقى بعض الشعراء المعاصرين من الأساطير اليونانية (فينوس) أو(أفروديت)، ومن البابيلة (عشتروت)، فتحولت رمز المرأة الظعينة بصورتها المجازية الموحية في شكل الظّباء أو الشّمس الزاهرة أو النخلة الوارفة ومحمل الخصوبة ومبعث الجمال بنزعة حسّية إلى صورة مجازية أخرى تتجسد في صفة ألوهية خالصة، تضفي عليها قداسة الوجود وقوة الخَلق، وغدت عشتار الإلهية ذات الكيان النّوراني وصاحبة الانفاس تهب الحياة[٥]:

وأقبلت إلهة الحصادْ
رفيقةُ الزهورِ والمياهُ والطُيوبْ
عشتارُ ربّةُ الشّمالِ والجُنوبْ
تسيرُ في السُّهولِ والوِهادْ
تسيرُ في الدّروبْ

وتحولت مقولة (بنات طارق) المتبارية بين الحقيقة أو المجاز، والمعبرة عن المعطى الثقافي للذاكرة العربية بالصّورة الموحية عن العلو وشهرة المكانة أو النّسب الشريف ومبعث

(١) الأسطورة في الشعر العربي المعاصر : ١٩٠-١٩١.
(٢) المصدر نفسه : ٢٢٢ .
(٣) المصدر نفسه: ٦٠ .
(٤) المصدر نفسه : ٨١ .
(٥) ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الثاني : ١٢٩ .

القوة والسّيادة إلى التشكيل بمقولة:(أفروديت) بنت زبد البحر[١]، وآلهة الحبّ والإغراء عند الإغريق[٢]، لنجد تحولاً إلى المعنى المجازي الصّرف، وبما يثير في الأذهان الاعتقاد بتلك الثقافة الأسطورية والاستقاء منها، فغدت أفروديت آلهة الإغراء، ملهمة الجمال حاضرة بقوة تثمل عقول الرّجال[٣] :

ثمّ نادت ((جالا))
وكانتْ من الرِّقة ..
كالماءِ إذ يهزُّ الخَيالا
مِن بناتِ ((الهُنود))
تعرف ما يُرضي الغواني
وما يَزينُ الجَمالا

لقد تمظهرت السّمات العامة للمعطيات الحضارية المرتهن بسياقها الثقافي وانسابت في تشكيل المعاني المجازية بحلتها الرّمزية، وتبلورت في شخصية الشّاعر العربي المعاصر الذي فطن إلى مكانه الصحيح من الموكب الإنسانيّ ، فهو لم يعد مزهواً بالغناء والحداء والإطراء والهجاء أو الافتخار بموضوعات معينة تعود إلى ثلاث قيم أساسيّة هي: أصالة النّسب، والشّجاعة في الحرب، والكرم في الأخلاق؛ فالشّعر المعاصر تأبطه الفن الحديث الذي تلفه حيرة وقلق، وشك وعذاب من عمق شعور صاحبه بمرارة الواقع حوله، وقد صور هذا الصّراع النفسي في فنه وشعره فأفاض على وعي الشاعر معاني الوطنية والحرية والعدالة في فكره وضميره، فتجد أدباً وشعراً من غابر التراث الانساني ومن الموروث الشعبي ومن أدبيات الحضارات المختلفة، بل من الفلسفة ذاتها التي صاغها شعراً[٤].

---

(١) أفروديت ، marefa. Org .

(٢) أفرذيتي آلهة الانوثة والجمال، الزهرة السماوية، كانت إلهة الحبّ النقي والمثالي، وعبدت في أثينا ،إذ تمثلوها جالسة عارية على متن تيسٍ، فعمدوا إلى نحت تماثيلها في نظير الغانيات والمومسات الشهيرات ، ينظر: الأسطورة اليونانية، الأب فؤاد جرجي زيادة : ١٤٧-١٤٨ .

(٣) الأعمال الكاملة (محمد مهدي الجواهري)، عصام عبد الفتاح : ١/ ١٥٣ .

(٤) جدلية الشاعر المعاصر ووظيفة الحداثة ، د. علي أحمد الأحمد ، مجلة أوراق ثقافية ، العدد الرابع عشر، السنة الثالثة، بيروت ، لبنان : ٢٠ .

فكانت الرّموز الأسطورية ذات البعد الانثروبولوجي المستقاة من الحضارات المغايرة والثقافات المتباينة الوسيلة المثلى في مجمل التحولات الفكرية الحضارية التي أغنت المضامين المواكبة للحدث الرّاهن في تحولات المعاني المجازية في النّص الأدبي، فألقت بظلالها على تحولات المعنى بين الحقيقة والمجاز فضلا عن تحولات للمعنى في مستوى الفضاء المجازي نفسه، بما يحوي المجاز عناصر تخييلية مساهمة في اتساع تداول النّص وفهمه .

الخاتمة

- الأنثروبولوجيا منهج أناسي يتناول دراسة الخصائص الإنسانية في ظل أنساق اجتماعية ثقافية، فضلا عن كونها شكلاً من البحث في الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته، وبما أنّ اللغة مظهراً متميزاً للكائن الانساني عن غيره من الكائنات الحيّة، فكان لزاماً على الأنثروبولوجيا دراسة اللغة في سياقها الاجتماعي والثقافي في المكان والزّمان المحددين، فاللغة تمتع بقدرة إبداعية تأسيسية، وهي المُفسِّر لكلّ الأنساق الرّمزية الأخرى ولاسيما في تمظهراتها الدلالية التي تكشف عن النماذج الفكرية والإدراكات التي تنطوي عليها .
- أنصب اهتمام الأنثروبولوجيا الرّمزية على دراسة الأشكال الرّمزية المتمثلة بالأقوال المجازية من الاستعارة والمجاز المرسل والكناية، بوصفها رموزاً تفسيرية تفصيلية تقدم الأطر التي بفضلها يمكن تمييز المشاعر والأفكار المركبة المتداخلة، فضلا عن كونها تتمتع بالقدرة على تنظيم الخبرة وتنسيقيها بفضل خاصيتها التحليلية، فمن خلال هذه الرّموز يمكن تمييز التجربة والخبرة الانسانية ووضعها في مقولات ثقافية، ولاسيما في الرّموز الاستعارية التي تتسم بميزة تصورية هائلة تعدّ مصدراً لكل التوجهات المعرفية والوجدانية .
- لقد كشفت الدراسة عن تضايف دلالي في إمكانية في تحوّل المعنى بين مقولات المجاز والحقيقة، فضلا عن تحولات للمعنى على مستوى الفضاء المجازي نفسه، لكون المجاز يمتاز ببنية ترميزية تمنحه قابلية على تشكيل علاقات جديدة بما يقتضيه الإدراك المعرفي على وفق معطيات معاصرة حضارية وثقافية مستقاة من عوالم شتى، مما أحدث نقلة على مستوى الادراك والفهم ذي البعد الأنثروبولوجي الأناسي الذي منح زخماً جديداً في مسك المعنى المتوخى من دلالة الكلام شكلت في تحولات المعنى المجازي، فلم تعد ثمة مقولات مجازية قارة وراسخة في التمثل الواقعي أو العرفي أو في مخيلة المبدع الذي ينشيء عالمه الخاص به، فمسألة تشكيل المجاز تتجاوز علاقات اللغة؛ لتمثل علاقات الانسان بالعالم وبما حوله، ولم يكن المجاز غرضًا لغويًا للزينة أو مقصداً وصفياً فحسب، بل للمجاز خطة محكمة مقصدها توليد المعاني بصفة لا نهائية من الدلالات المتجددة، فالخطاب في إطار المجاز يحقق التفوق الزّمني ويكتسح كلّ الفترات الزّمنية، وهو بالضرورة يتمتع بنصيب وافر من أنتاج صور مجازية متبارية في فضاء النّص .

ثبت المصادر

أولاً: الكتب

- أساس البلاغة ، الإمام جار الله الزمخشري، قراءة وضبط وشرح د. محمد نبيل طريفي، دار صابرن الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٩.
- الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف و مارك جونسون، ترجمة عبد الجميد جحفة، دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، الدار البيضاء ، المغرب،٢٠٠٩ .
- الأسطورة في الشعر العربي الحديث، د. أنس داؤد، دار الجيل للطباعة،(د.ط)، القاهرة، ١٩٧٥ .
- الأسطورة اليونانية، الأب فؤاد جرجي زيادة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، (د.ط)، دمشق، ٢٠١٤، : ١٤٧– ١٤٨ .
- الأعمال الكاملة (محمد مهدي الجواهري)، عصام عبد الفتاح، مكتبة جزيرة الورد، الطبعة الأولى، (د.م) ٢٠١١ .
- الأغاني، أبو فرج الأصبهاني علي بن الحسين، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، (د.ط)،(د.ت) .
- الأنثروبولوجيا اللغوية، د. مها محمد فوزي، دار المعرفة الجامعية ،الاسكندرية،٢٠٠٩.
- الإيضاح في علوم البلاغة ، وضع حواشيه ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.٢، ٢٠١٠ .
- بحوث فلسفية، لود فيتج فتجنشتين، ترجمة د. عزمي إسلام، مراجعة وتقديم د. عبد الغفار مكاوي ،جامعة الكويت ، ١٩٨٩ .
- البرصان، أبو عثمان الجاحظ ، تحقيق عبد السّلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ،الطبعة الأولى، ١٩٩٠ .
- تحولات المجاز في الفكر العربي المعاصر– بحث في الفجوات والإملاءات – د. حيدر برزان سكران، دار الخليج للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى ، الأردن، ٢٠٢٠ .
- التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن حمدون بهاء الدين البغدادي، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ .
- تمثلات المرأة في الشعر العربي القديم، لبنى علي مفتاحي، مومنت للكتب والنشر،(د.ط)، ٢٠٢١ .
- جدلية الشاعر المعاصر ووظيفة الحداثة ، د. علي أحمد الأحمد ، مجلة أوراق ثقافية ، العدد الرابع عشر، السنة الثالثة، بيروت ، لبنان .

- الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي، مطبعة نهضة مصر، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٢ .
- خمسون عاما في مديح النساء ، منشورات نزار قباني، (د.ط)، بيروت، لبنان، ١٩٩٤.
- ديوان أبي العتاهية ، دار بيروت للطباعة والنشر ، (د.ط) ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الثاني، دار العودة، بيروت، لبنان، د.ط ، ٢٠١٦ .
- ديوان لبيد ابن ربيعة العامري ، دار صادر ، (د.ط) ، بيروت، ١٩٩٩ .
- الرّمز في الشعر العربي قبل الإسلام، د. مؤيد محمد صالح اليوزبكي، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، (د.ط) ،جامعة الموصل، ٢٠١٠ .
- شرح المعلقات السّبع ، حسين ابو عبد الله الزّوزني (ت٤٨٦ هـ)، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، (د.م)، ٢٠٠٢ .
- صحيح البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد اسماعيل البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ، الطبعة الثالثة، بيروت ، ١٩٨٧ رقم الحديث ٤٢٤٠ .
- الصّورة الشعرية في الخطاب النقدي والبلاغي، الولي محمد، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى ، بيروت، لبنان، ١٩٩٠ .
- العقد الفريد ، ابن عبد ربّه الاندلسي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤٠٤هـ .
- علم اللغة العام، فرديناند دي سوسور، ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، الطبعة الثالثة، بغداد،١٩٨٥ .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٠٢ هـ .
- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د. رجاء عيد، منشأة المعارف، الطبعة الثانية، الاسكندرية، (د.ت) .
- في الأنثروبولوجيا اللسانيات – الذهن والخطاب والثقافة ـ ، عبد الرحمن محمد طعمة، دار رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة ، ٢٠٢٢ .
- القراءة وتوليد الدلالة ، د. جميل لحمداني، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ٢٠٠٣ .
- الكناية، د. محمد جابر فياض، دار المنار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، جدة– السعودية، ١٩٨٩ .
- الكهانة العربية قبل الإسلام، توفيق فهد، ترجمة حسن عودة و رندة بعث، شركة قدمس للنشر والتوزيع ، (د.ط)، بيروت، لبنان .

- كيمياء المجاز بين الخطاب القرآني والانساني، بو عافية محمد عبد الرزاق، مؤسسة حسين راس الجبل، الطبعة الأولى، الجزائر، ٢٠١٩ .
- لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف ، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون ، (د.ط) ، (د.ت) ، مادة (كشح) .
- محاضرات في اللسانيات الاجتماعية، لطفي بو قربة، معهد الأدب العربي والعلوم الانسانية ، جامعة بشار، الجمهورية الجزائرية العربية الديمقراطية الشعبية، ٢٠٠٣ .
- مدخل إلى علم الإنسان(الأنثروبولوجيا)، د. عيسى الشّماس، اتحاد كتاب العرب، (د.ط) ، دمشق، ٢٠٠٤ .
- المعاني الكبير، أبو عبد الله محمد ابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٤ .
- معجم اللغة العربية المعاصرة، أ.د أحمد مختار عمر، عالم الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٨ .
- مفتاح العلوم، علق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٧.
- نظرية النّص– من بنية المعنى إلى سيمائية الدال – ، د. حسين خمري، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، الجزائر، ٢٠٠٧ .

ثانياً: المجلات والدوريات

- الأنثربولوجيا المعرفية واتجاهاتها النظرية(اللغة، المكان، الزمن)، سوزان سالم داؤد، مجلة الآداب، جامع بغداد، ملحق العدد ١١٨، ٢٠١٦ .
- دور المخاطب في إنتاج النّص وأثره في لغة الخطاب وبلاغته – قراءة في التراث البلاغي – ، د . علي عبد الكريم مبروك ، مجلة حولية كلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات، المجلد السابع ، العدد الثاني والثلاثين ، الاسكندرية ، ٢٠١٦.
- شعرية الترميز وآليات توليد المعنى في النقد العربي المعاصر، بريزة بهلول و عبد اللطيف حني ، مجلة إشكالات في الأدب واللغة، جامعة الشاذلي بن جديد ، الطارف، الجزائر، مجلد ٩، العدد ٥ ، ٢٠٢٠ .
- الكناية العلمية في السّنة النّبوية المطهّرة، د.أحمد عامر، مجلة الجامعة العراقية، العدد ١/٣٩، ٢٠١٧ .
- الكناية في ضوء التفكير الرّمزي (رسالة ماجستير)، د. نائلة قاسم لمفون ، إشراف د.لطفي عبد البديع ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، ١٩٨٤ .

ثالثاً: الشبكة العنكبوتية / الأنترنت

- أفروديت ، marefa. Org .
- اكتشاف أسرار الشيب ، موقع عبد الدائم الكحيل للإعجاز العلمي في القرآن والسنة . kaheel٧ com.
- بوابة علم البيئة ، https://www.wikiwand.com/
- سؤال المعنى– من الفلسفة إلى الأنثربولوجيا – ، د. علاء كاظم : www. mana.net
- الكلمات الجارحة حينما تتلاك ندوباً نفسية لا تنسى، alghad.com .
- ما سر ظهور الليالي البيضاء في بعض المناطق المدارية ، Arabic.rt.com .